الحاجّة كُرمة

اتصلت سيدة عجوز بـ «بنك الطعام» تطلب حضور مندوب؛ لتسلُّم خمس بطاطين تبرعًا منها لضحايا السيول، وتركت عنوانها بالتفصيل: ميدان، ثم شارع، ثم حارة، ثم حارة أخرى، ثم دكان بقال، ثم بيت!

وصل مندوب البنك بصعوبة بالغة إلى مكان إقامة السيدة العجوز، فوجدها عجوزًا أكثر مما تصور، هزيلة أكثر من أي توقع، بسيطة أقل من كل فقر، تسكن غرفة صغيرة لا تدخلها الشمس أسفل سلم الدرج.

استقبلت العجوز موظف البنك باشتياق شخص يبحث عن ضوء في عتمة، فأصرّت على أن تؤدي له واجب الضيافة، كوبًا من الشاي، وهي تقدمه قالت له:

الشاي يا بني، من يد خالتك كُرمة، بالهناء والشفاء.

كان الموظف الشاب يشرب الشاي، وهو يراقب عروق وجهها تنتفض، وهي تحكي منفعلة، وكان مدهوشًا، إذ تصرخ في وجع:

لا تتعجب، فأنا فقيرة، ولكن هناك من هو أفقر مني، فمعاشي من زوجي رحمه الله ثلاث مئة جنيه، اشتريت بمئتين وخمسين جنيهًا هذه البطاطين، ويكفيني خمسون جنيهًا.

تسكن الحاجة كُرمة في غرفة لا تتسع لأكثر من شخصين، حيث سريرها صغير، يتحمل بصعوبة جسدها النحيل، ولمبة في السقف، وتلفاز بإيريال معلق على شباك المنور، وهاتف قديم يبدو أنه نافذتها الوحيدة مع الحياة، وابتسامة دافئة كبيرة تكشف عن أنها منذ زمن بعيد لم تعرف أبعد من هذه الغرفة.

قال لها الموظف: ولكن يا حاجة كُرمة، لا تفهميني على نحو خاطئ، وتحمّليني، ألستِ أولى بثمن الخمس بطاطين، فظروفك...

وتضرب الحاجة كرمة يدها على طرف السرير، فيهتز، وتقول بعبارات لا زيف فيها ولا تراجع: يا بني، ما رأيته في التلفاز يقطّع القلب، أُناس عرايا، مرميون في الشوارع من غير بيت أو غطاء، أنا فقيرة، ولكن لست معدمة.. أما هم فمعدمون، أنا ربنا ساترني في غرفة، أقفل بابها، فأستدفئ، وأنام.. وهم ليس عندهم باب أو غرفة، يا بني، خذ البطاطين، وتوكل على الله، وأعطِها محتاجًا قبل أن يحلّ الليل، وتصل بالسلامة، لقد شرّفتنى يا بني.

ذهب الموظف بأغلى خمس بطاطين إلى مقر بنك الطعام، وحكى لزملائه، والدموع تملأ عينيه قصة الحاجة كُرمة، بكرمها وكبريائها، ووجهها الصافي الصادق، وكلماتها البريئة الحقيقية، وعلاقتها مع الله.

هـذه المرأة العجـوز التـى نسيها الزمـن لم يهملها الله برحمتـه، فقد رزقها الحب والبساطة والشجاعة، هذه امرأة لا تخاف أحدًا، لا تخاف الفقر، ولا الجوع والبرد، ولا المرض، ولا الموت، تحب الله، وتعيش في أمانه وفي وعده الحق لها.

هذه المـرأة نظنها تعيش على هامش الحياة، ولكنها هي الحياة نفسها.

قـرر زمـلاء الموظـف أن يفعلـوا أي شيء لهـذه المرأة، فاقترحوا لهـا معاشًا شهريًّـا، ومعونة عاجلـة، والبحث عن شقة صغيرة لهـا، وسرير أكبر، وثلاجة بهـا طعام، وفسحة في مكان جميل، لكن موظف البنك الذي ذهب إليها قال لهم بثقة من عرفها عن قرب: إنها سترفض كل شيء.

وفـى النهاية وصلوا إلى حيلـة، إذ اتصلوا بها على أنهم من شركة الهاتف، فأبلغوها بأنها فازت بجائزة مالية كبيرة، فقالـت لهم دون أن تهتز من فرحة أو مفاجأة: أتعرفون بنك الطعام؟ تبرعوا بالفلوس كلها لهذا البنك، قولوا لهم: اشتروا بالمبلـغ كله بطاطين، وأرسلوها إلى منكوبي السيول، فلا أحد يموت من الجوع، ولكن هناك كثيرون يموتون من البرد.

حديـث: «ليـس الغِنـى عن كـثرة العرض، لكـن الغنى غنى النفس»[1].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٤٦) ومسلم (رقم ١٠٥١).